

ابتلاء الشام فوائد ومكاسب

الشيخ محمد صالح المنجد

النبة: إن أمة الإسلام أمة مرحومة، جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وفتنة، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الابتلاء لمصلحة هذه الأمة ولا شك، كي تعرف عدوها الذي يسومها سوء العذاب، ويربط أهل العلم والإيمان بين الحادث الواقع وبين السنن الإلهية، فالله عز وجل له سنن يأتي باليسر بعد العسر، وهكذا يأتي العسر ويشد الأمر ويعظم الخطب ليأتي بعده اليسر ويتزل الفرع، فنفس الناس فيها التواءات كثيرة وأخلاق رديئة، وكثير منها لا يقومها خطبة ولا موعظة، ولا دعوة داعية، ولكن يقومها البلاء.

الأمة معرضة للإبتلاء.

فوائد ابتلاء المؤمنين.

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

الحمد لله الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً، فأحسن تقديره سبحانه وتعالى، وكلفنا بالإيمان بقضائه وقدره، خلق السرور والأفراح، والمصائب والآلام، وقد شاء الله عز وجل أن يوقظ عباده من غفلاتهم بما يقدره عليهم، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يتلي عباده بما شاء ابتلاءً هو من مصلحتهم، يزيد به في حسناتهم ويرفع بسببه درجاتهم ويكفر عنهم به خطيئاتهم.

الأمة معرضة للإبتلاء.

عباد الله:

أمتنا أمة مرحومة جعلت عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وفتنة، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الابتلاء لمصلحة هذه الأمة ولا شك، والله عز وجل عليم ببواطن الأمور وهو خير سبحانه وتعالى والناس خلُقوا من عجل وكثيراً ما لا يرون جانب الخير في قدر ظاهره شر عليهم، ولذلك قال الله: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} (سورة النور: 11). وقال الله: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} (سورة البقرة: 216).

والله تعالى يذكر عباده بحقيقة الدنيا؛ لأنهم يغفلون في غمرة ما يدخلون فيه من فتنها، وشهواتها، ويتلبسون به من مشغلاتها وما فيها، {زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} (سورة آل عمران: 14). يعني: الزرع، فقد يصيبهم سبحانه وتعالى بأمور في

أولادهم، أو نسائهم، أو زروعهم ومواشيهم، أو أموالهم من الذهب والفضة وغيرها؛ كي يفيقوا من زهرة الدنيا وفنتها ويعلموا حقيقتها.

وكذلك فإنه عز وجل يتليهم بما يتليهم به؛ كي يعرفوا عدوهم الذي يسومهم سوء العذاب، ويربط أهل العلم والإيمان بين الحادث الواقع وبين السنن الإلهية، والتاريخ يعيده الله عز وجل لا يعيد نفسه فهو مخلوق وقد جعل الله في هذا التاريخ عبراً، ولما أخبر عن فرعون أنه كان يسوم المستضعفين عنده سوء العذاب يذبح أبناءهم ويستحيي نسائهم فإنك ترى هذا مكرراً اليوم فيما يفعله الجرمون بالشام مثلاً، فإنهم يقتلون أبناءهم، أبناء هؤلاء المستضعفين، ويستحيون نساءهم، وفي الآية الأخرى **{يُذَبِّحُونَ}** (سورة البقرة 49). لم يقل: يذبحون، وإنما **{يُذَبِّحُونَ}** مبالغة في وصف ذلك لما يحصل من هؤلاء الجرمين من الإسراف في الذبح وكثرته وشناعته، ولذلك تسلط الباطنية على مسلمي الشام اليوم يذبحون أبناءهم بالسيوف والسكاكين ويستحيون نسائهم ويسومونهم سوء العذاب، وعندما يذكر ربنا نموذجاً من النماذج بلا اسم يرتبط به لكي يرى المسلمون هذا النموذج في الواقع إذا حصل فيعرفون ما المقصود بهذه الآية، كقوله عز وجل: **{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ}** (سورة البقرة 205).

عباد الله:

عندما يأتي الأمة مثل من المثالات التي قد خلت **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}** (سورة البقرة 214). والله الحكمة البالغة، فلو يشاء الله لانتصر منهم، ولقضى عليهم بلمح البصر، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والله جنود السماوات والأرض، ولكن يريد ربنا عز وجل أن يتعبد عباده إليه في الشدائد كما يتعبدونه في السراء، وعبادة الضراء لها شأن عظيم في تربية النفس، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال في شأن المبتلى: **((ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه، إلا كتب الله له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة))** [رواه مسلم]. فما بالك بمن يصيبه قذيفة أو قنبلة أو صاروخ ! فكيف سيكون الأجر إذن وتكفير السيئات؟ إذا كانت هذه هي الشوكة فما بالك بما هو أكبر من الشوكة مما يقع الآن من البلاء، والله يحب أن يسمع تضرع عباده ودعائهم له، وإقبالهم عليه، وإلحاحهم في خطابه، **{فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** (سورة الأنعام 43). ومثل هذا التضرع لا يقع إلا في مثل هذا الحال من البلاء.

والله تعالى يحص العباد ليعلم، أي ليظهر علمه في الواقع وإلا فهو يعلم من قبل سبحانه، ليعلم الذين ينصرونه، **{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}** (سورة الحج 40). فيكون لله أنصار عند لقاء الحق بالباطل وتسلط أهل الباطل، فيجبن من يجبن ويتقدم من يتقدم، يبذل من يبذل ويتخاذل من يتخاذل.

فوائد ابتلاء المؤمنين.

والله عز وجل له سنن يأتي باليسر بعد العسر، وهكذا يأتي العسر ويشتد الأمر ويعظم الخطب ليأتي بعده اليسر ويتزل الفرج، نفوس الناس فيها التواءات كثيرة وأخلاق رديئة، وكثير منها لا يقومها خطبة ولا موعظة، ولا دعوة داعية، ولكن يقومها البلاء فيستخرج الله بالبلاء من النفوس أدواءها، وهكذا يذهب البخل ويتزل والكرم والبذل، وهكذا يذهب الجبن وتأتي الشجاعة والإقدام، وهكذا يذهب الافتتان بالدنيا ويحل محل ذلك العمل للآخرة فلم تعد الدنيا قائمة في ضل هذا البلاء، فأى دنيا وقد مات من مات من الأهل وأى دنيا وقد خرب ما خرب من البيت والمسكن، وأى دنيا ولا عمل ولا وظائف ولا رواتب، ولذلك يرى الناس حقارتها حينئذ، ويرون أنه لا يبقى إلا وجه الله، **{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}** (سورة الرحمن 26). فيرون صورة مصغرة لذلك الفناء بهذا الابتلاء، وعندما يتبخر الخوف ويقوم الإقدام في النفوس تتغير كثيراً ويحصل من البطولات ما يحصل ويكون في هذا تربية من الله سبحانه وتعالى لعباده.

في حالات الرخاء يكون اللجوء إلى الله قليلاً، في حالات الرخاء يكون هنالك كثير من الارتخاء والدعة والكسل، وفي حالة المحنة يقوم سوق النشاط والعمل، وكذلك يضاعف الناس جهودهم أضعافاً مضاعفة لرفع البلاء والخروج من المحنة وجهاد العدو.

عباد الله:

عندما يتلى المسلمون بأمر لا يعينهم عليه إلا الله، ومن قل من إخوانهم الصادقين، كيف يكون التوحيد حينئذ؟ إنه يتجرد لله؛ لأنه ليس معهم حينئذ إلا الله، فيكون معنى قوله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر: **((لا تحزن إن الله معنا))** [رواه البخاري 3615]. له طعم خاص، ويكون معنى قوله تعالى حينئذ: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}** (سورة آل عمران 173). فعند ذلك تنطلق ألسن المؤمنين بعبارات التسليم: **{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** (سورة التوبة 51). ويقولون تحت التهديد والوعيد، **{لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ}** (سورة الشعراء 50). وينظرون إلى أبواب السماء ملتسمين قوله: **{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}** (سورة الروم 47).

وهكذا تتعلق القلوب بالله ويتجرد التوحيد لله، ويرى المسلمون من أنواع الزيادة في الطاعات وتلاحم إخوانهم معهم، وذوبان الفوارق، وزوال الحواجز فيقوم سوق الجسد الواحد للأمة الذي غيب كثيراً بفعل مؤامرات أعدائها، والمؤمن مع المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، في هذه الأثناء من المحنة والشدة والقصف والحصار تكون العبادة ذات أجر مضاعف، كما قال عليه الصلاة والسلام: **((العبادة في المهرج كهجرة إلي))** [رواه مسلم 2948]. لماذا؟ لما يكتنفها من الفتن والمشقة ولما تحتاجه من التركيز حينئذ في غمرة هذه النوازل، في ظل هذه الحن يرتبط تاريخ آخر الأمة بأولها، وتبعث قصص البطولات فتسمع منها ما تكاد لا تراه إلا في كتب التاريخ؛ لأن مثل هذه البطولات لا تقع في أيام الرخاء ولا في أيام السراء وإنما هي في أيام حرب العدو وشدة اللقاء، فينظر المسلمون إلى تاريخ متواصل من العطاء والبذل والتضحية والفداء، وعودة روح الأخوة إلى المسلمين ويعين

بعضهم بعضاً بالمال والمساندة النفسية والإعلامية وأنواع الإمدادات عند ذلك يتحقق في الأرض من الإيمان ما لم يكن قائماً، ويكون في أجر البذل والصدقة في وقت الشدة ما لا يكون من أجر الصدقة في وقت الرخاء، أفلا ترون ربنا تعالى قال: **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}** (سورة البلد 11-14). يعني: جوع شديد، مسغبة: حاجة ملحة، مسغبة: ملهوفون ينتظرون، مسغبة: مجاعة عطش حاجة وشدة، **{يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}** (سورة البلد 15-16). قد التصق بالتراب ويُمر بالأطفال من مدينة إلى مدينة أخرى يلتمس لهم عائل أو عوائل؛ لأن أسرهم قد ذهبت فيكون في المسلمين من أهل النجدة والمروءة والشهامة والإيواء ويكون فيهم من أهل كفالة اليتيم والإحسان إلى المحتاج، فيؤوي الناس بعضهم بعضاً؛ لأن بيوت أولئك قد قصفت فتهدمت، فمن ذا الذي يؤويهم بعد الله؟ إنما بيوت إخوانهم التي إذا ازدحمت بنياناً فإن انفساح الصدور يوسعها.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم. أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو البر الرءوف الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، أشهد أن لا إله إلا هو، ولي المتقين، وناصر المستضعفين، سبحانه وتعالى هو القوي العزيز، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الأمين، نبي الملحمة، جاءنا بكتابه من الله سبحانه وتعالى، جاءنا بالقرآن من الله، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، فصولات الله وسلامه عليه، وعلى آله، وصحبه، وأزواجه، وذريته الطيبين، وخلفائه الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

عباد الله:

اقتضت سنة الله أن لا يترك الناس، ولا حتى المؤمنين منهم، **{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}** (سورة آل عمران 179). فتنقية الصف هذه إرادة إلهية، وأن يبلو بعضكم ببعض هذه إرادة إلهية ومقصد رباني، وأن يدفع بعض الناس ببعض سنة إلهية، **{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}** (سورة آل عمران 140). أيضاً، وهكذا فالزبد يذهب جفاءً وما ينفع الناس يمكث في الأرض، وهكذا من سننه، **{إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ}** (سورة محمد 7). وهكذا من سننه سبحانه وتعالى إهلاك الظالمين، والذهاب بالجرمين، فيجرمون حتى يصلوا إلى المقدار الذي كتب الله أن يأخذهم عنده فيأخذهم حينئذ، ويكون قد اتخذ تعالى شهداء من هؤلاء المؤمنين واصطفي من اصطفى من عباده الأخيار، ووفق لعمل الصالحات من وفق، وقام سوق الإيمان والإخوة، **{سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ}** (سورة القصص 35). وصار بين الناس صلة، صلة الدين والإيمان، يعينون إخوانهم فلا يخذلوهم، والله يريد أن تستبين سبيل الجرمين. أي تظهر طريقتهم وتنكشف أحوالهم وتبين حقيقتهم، هذا مقصد إلهي، **{وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}** (سورة الأنعام 55). يدفع من أجل تحقيقه دماء وأموال أرواح هذه مقاصد ربانية عظيمة لا تتحقق إلا ببذل وعطاء وتضحية وفداء، فعند ذلك تظهر الحقائق التي كان بعض الناس قد عشت أبصارهم عن إدراكها، ولم تستطع قلوبهم أن تتبينها، **{وَكَذَلِكَ نَفْصُلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}** (سورة الأنعام 55).

فيسقط القناع عن علماء للسوء، وكذلك تتبين حقيقة أعداء للإسلام، وخصوصاً من الباطنية المنافقين الذين تلبسوا بلباس مسلمي الأمة، فغروا كثيراً منها، فهنا تظهر أحوالهم، وتدور الأيام لتبدو العورات، ويعرف المسلمون حقيقة من هم أهل الإسلام الصادق من المنافقين والأدعياء والملتصقين المستترين بأشياء من الدين، تظهر الحقائق حينئذٍ، تظهر بهذا الإجرام، تظهر بهذه المواقف الدنيئة، يظهر بهذا التماثل لأهل الباطل وإعانة بعضهم بعضاً، ومؤازرة بعضهم بعضاً، ودخول بعضهم لاحتلال بلاد المسلمين، هكذا إذن هو احتلال باطني قد تحول بسببه كثير من المسلمين إلى نازحين داخل بلادهم، وقام سوق الإجرام وتفنن هؤلاء أهل الحق والبغض للدين وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فكان في ذلك شاهد تلو شاهد ودليل على اثر دليل، ليبين للناس حقائق هذه المذاهب، ليبين للناس من هو حقاً من هم أهل الإسلام ومن هم أهل الكفر والنفاق ولو تلبسوا بما تلبسوا به من فضائل ادعوها كالمانعة أو محبة آل البيت أو المقاومة، ونحو ذلك من الإدعاءات.

عباد الله:

ويكون مستوى الوعي عند الناس مرتفعاً حينئذٍ ويخرج من الكفاءات ما يخرج من المسلمين في هذه المنازلات وما يدخل فيها من ميادين الإعلام والشبكات، وعندما يتساءل الناس إلى متى وحتى متى هذه المذابح؟ فلا بد أن يقال: **{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}** (سورة الأنبياء: 23). **{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}** (سورة إبراهيم: 42). فله الحكمة البالغة، وهو سبحانه وتعالى لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يقدر أمراً سدى، وإنما من وراء ذلك حكم بالغة، فيكسر من عدوه من يُكسر، **{إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ}** (سورة النساء: 104). ويأتي النصر بطعم مختلف بعد توضيحات كبيرة، وإن طال وقت المدافعة.

اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اكسر أعداء الدين يا رب العالمين، ودمر الظالمين، وأنزل بأسك بالجرمين، واتهمهم من حيث لا يحتسبون، اللهم زلزلهم، وخذهم أخذاً وبيلاً، وأنزل بهم بأسك الذي لا يرد عن القوم الجرمين، خالف بين كلمتهم، وألق الرعب في قلوبهم، واجعلها عليهم ناراً، ودماراً، وعاراً، وشناراً، واجعلهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، اجعلهم، ونساءهم، وأولادهم غنيمة للمسلمين، يا رب العالمين، إنك على كل شيء قدير، وأنت الجبار المنتقم القوي العزيز، لا يعجزك شيء في الأرض، ولا في السماء، اللهم ارحم حال إخواننا المستضعفين، اللهم أطعمهم، فهم في جوع، وأمنهم فهم في خوف، اللهم احمهم فإنهم حفاة، واكسهم فإنهم عراة، وآوهم فإنهم مشردون، اللهم احفظهم في دينهم، ودمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، يا أرحم الراحمين، كن لهم، ولا تكن عليهم، وانصرهم، ولا تنصر عليهم، عجل فرجهم يا رحمن يا رحيم يا رءوف يا كريم، اللهم أنت على كل شيء قدير، اللهم إنا نسألك في ساعتنا هذه أن تثبت أقدام إخواننا، وأن تتزل عليهم السكينة، وأن تفرغ عليهم صبراً، وأن تنصرهم على القوم الكافرين، اللهم لك الحكمة البالغة لا تُسأل عما تفعل، ونحن عبادك المحتاجون إلى رحمتك، وهؤلاء الضعفاء لا يستغنون عن منتك، وفضلك، وعونك، اللهم كن في عوفهم، اللهم كن في عوفهم، اللهم كن في عوفهم يا أرحم الراحمين، واجعلنا يا ربنا ممن يقوم بحقوق إخوانهم المسلمين، اللهم إنا نسألك أن تغفر ذنوبنا، وتستر عيوبنا، وتقضي ديوننا، وتثبت أمننا، اللهم علمنا ما ينفعنا،

وانفعنا بما علمتنا، اجعل الجنة مثوانا، وجنبا عذاب النار؛ إنها ساءت مستقراً، اللهم إنا نسألك في ساعتنا هذه أن تخرجنا من ذنوبنا كيوم ولدتنا أمهاتنا، ارحم موتانا، واشف مرضانا، يا أرحم الراحمين، اهد ضالنا، اللهم ردنا إلى الحق، واجعلنا به مستمسكين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.